امرأته وولديه ليقضي عندنا عدة أشهر ، كأنما جاء يتقاضانى بذل ما أحسن الى ، وتصوروا وقع هذه المفاجأة على امرأتى التى أغمى عليها من شدة الدهشة ، ولم أر بداً من الأنغماس فى هذه المهزلة ، ولا سيا وأنهم أبحروا دون انتظار جوابى .

نزلت الى مرسيليا أنتظرهم ، فوجدت شيخاً غريباً فى سراويل متهدلة وطربوش ، ومعه امرأة ضخمة ، على رأسها منديل أسود والى جانبها بنت صغيرة . واتفق أن تفتحت أبواب السماء يومئذ فهطل المطر غزيراً ، حتى شعرنا أن السماء قد هبطت على الأرض فدخلنا مقهى قريباً ، ولكن البنت ارتاعت منه ، فملأت الدنيا بكاء ولم تشأ السكوت ، وأخيراً أزفت ساعة القطار فركبناه الى ماجيدى ، والناس يرمقوننى يحسبون أنى أنقل الى البلد (سركاً) غريباً . وبلغنا المنزل ، فكان استقبال زوجتى بارداً ، وجاءت ساعة الطعام ، فلم تألف أيديهم الأكل بالشوكات والصحاف ، وانتشروا بعد الطعام فى قاعة الأكل وفى الغرف المجاورة ، وبكى الطفل بكاء شــــديداً ، فبكت زوجتى أيضاً ، ووقفت أنا فى حيرة بينهما ، فلعنت الشرق ومن شاد بذكره .

***

ولما كانت صبيحة الغد سمعت وأنا نائم أصواتاً غريبة تمتزج بأحلامى ، فصحوت فاذا بزوجتى ترقص أمام السرير ، وتغنى وتصيح : لقد سافروا يابيير ، لقد سافروا ! . . .

ونظرت فاذا الشيخ قد ترك لى بطاقة صغيرة ، فيها جملة واحدة عربية ، حملتها الى من يترجمها لى ، فاذا فيها : — وداعاً ! لقد علمت الآن أن منزلك ليس منزلى .

دمشق : (زو الطابر)

آلام فرتر

الشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

ترجمها الأستاذ احمد حسن الزيات

ثمنها ١٥ قرشاً

ناحية خفية من نواحى السودان

القـــــعب

مصح ومصيف جميل

بقلم أبو القاسم محمد بدرى

القعب واحة مشرقة بين صحراء محرقة ، يشتد بهـا الحر ويعنف فيها القر ، تكاد تصعب فيها السكنى وتستحيل الأقامة ، لولا أن الله وهب لها تلك الواحة البهيجة ، والروضة النضرة ، فتوقت إليها السكنى وطيبت بها الاقامة وحببت فيها الحياة .

ليس القعب واحداً فى عدّه ، ولاشاسعاً فى بعده ، فهو عدة واحات متقاربة الأطراف مختلفة الأسماء ، متحدة النفعة والدواء ، سُميت بالقعب فى مجموعها ، ولكن لكل قعب منها اسم خاص به ، كقعب اللقية وهو أشهره ، والسوانى ، وأبو تمل ، وما إليها ، مما يبلغ العشرة أو ينيف عدّاً .

يشغل القعب جزءاً كبيراً فى الجزء الغربى من مديرية دنقلا ، ويبعد عن النيل بضع ساعات ، ويسافر اليه بالمطايا نظراً لقلة السيارات فى هذه المديرية ، ولكنها ستعم فى المستقبل القريب كل أنحائها ولاسيا بعد أن انتظم طريق المواصلات بالسيارات بين مديريتى دنقلا وحلفا . ولايفوتنا أن مشقة السفر هذه لاتمنع الوصول اليه على متون الابل بأجرة زهيدة وزمن وجيز ، وخصوصاً إذا توجه المسافر اليه من مدينتى دنقلا وأرجو ، أو من احدى القرى المنتثرة بينهما على طول الطريق ، ويبتدىء موسمه عادة فى آخر فصل الصيف فى الزمن الذى يقرب أو يتم فيه نضج البلح الذى له — على مايزعم البعض — أثر كبير فى الشفاء وصحة البدن ، ويصنع منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، منــــه ماهو سائغ الطعم لونه أصفر مشرب بحمرة ، حلو لذيذ لايسكر ، يسمى « الشربوت » ومنه ماهو مُر المذاق حائل اللون يسكر فى الغالب ، ويطلق عليه « الدكاى » وكلا النوعين مفيــد للصحة ، مجدد للنشاط ، مقو للبدن .

والقعب بلدة طيبة المناخ غنية المرعى خصبة الثرى وافرة النعيم ،

يؤمها البدو صيفاً ويرحلون عنها شتاء ينتجعون الكلأ والماء ، ويطلبون الغنى والثراء من أكف الرضى وأيدى السائحين الذين يفدون الى القعب زرافات ووحداناً من أقصى جهات السودان وبعض البلدان الأخرى . يقاضونهم أجراً على عملهم ومسكنهم ، ويمنحونهم فيضاً من نعمهم وفضلهم ، على أن هاته الأجور وتلك المنح لا يأخذونها من جراء الكراء وتملق النزلاء وحب الاستجداء ، كلا ، ففطرة البدوى الصميم تأبى عليه أن يتطلب الغنى والجاه من سبل كهذه ، لولا أن حاجات العيش الملحة ومطالبه الكثيرة ترغمه على أن يتقبلها كارها طائعاً إذ لا سبيل لعيشه بدونها ؛ وهو لسمو نفسه وكرم يحتده لا يقبلها إلا بعد أن يرهق بدنه فى هناء خيفه وخدمة نزيله لما رُكّبَ فيه من طباع الكرم والنجدة والمروءة ، وبعد أن يقدم له قرى فاخراً وهدايا جميلة من حمر النعم ، وطيب الغنم ، ومشتهى الأزاذ ، وهى كل ماتصل اليه يد ذلك البائس الكريم ، والبدوى الى ذلك لطيف المعشر بسام الثغر ، سريع البدار الى لقاء الزوار ، يستقبلهم بطلاقة ويحييهم ببشر ، ويستدبرهم بكرم غيب وطيب ذكر ، تلمح فى وجهه سمات السذاجة المشوبة بالجهل ، وآيات الوداعة الممزوجة بالأنفة والاخلاص مع بساطة عيش وهدوء نفس ، وصبر جميل على معاناة النوائب والشدائد .

وهؤلاء البدو لا يختلفون — عادة — عن باقى العرب فى أساليب العيش والسكنى وطرق التفكير والتدبير فى شئون الحياة ، فعيشهم تغلب عليه البساطة ، يعتمدون فى غذائهم على الألبان واللحوم وبعض التمر والحبوب ، أما مسكنهم فحقير متواضع ، مصنوع من القش والوبر وخشب النخيل ، إلا أنه مع تواضعه وحقارته نظيف الحجرات بارد الظل والنسيم ، بديع الشكل . ويعتمد البدو كثيراً فى جلب قوتهم على الاحتطاب ، وهو أهم موارد رزقهم لفقر بلادهم الجدبة التى لا تصلح أن تكون إقليماً زراعياً مع خصوبتها لندرة الأمطار وصعوبة الرى .

وأرض القعب رملية ناصعة تصعد طوراً حتى تكون نجداً ، وتهبط آخر حتى تنحدر الى وهد أو سهل فسيح تنتشر فيه هنا وهناك كثبان الرمل المتقاودة ، وقد قامت فوقها أشجار النخيل الباسقة حانية أغصانها الخضراء المورقة فوق سفح الوادى وحول حافة الينبوع ، ومن بينها تتدلى أقناء البلح موشاة بصفرة الذهب وحمرة العقيق ، فيتكون من ذلك منظر طبيعى جميل تتجلى فيه الطبيعة بأجلى معانيها وأروع صورها الفاتنة الساحرة . هناك تحت ظلال النخيل وفوق الرمال وحوالى الينبوع ، حيث تخلد النفس الى الراحة وتنعم بالهناء والصفاء ، تحسن المتعة وتطيب المسرة ويلذ الأنس ، بل هنالك وحده يصفو العيش ، وتسعد الحياة ويحلو المقام . .

وكأنى بك وقد جلست عند الأصيل فوق ربوة عالية تسرح الناظر وتمتع الخاطر بمشهد الغزالة عند الغروب ، وهى تستل أشعتها الشاحبة من أحضان الوادى الكئيب بعد أن زفت اليه تحية الوداع ، وبعد ما ألقت عليه نظرة ساجية تفيض بالألم المض والحزن العميق . أو نهضت من فراشك مبكراً فألفيت الشمس تهبط من خدرها باسمة مشرقة تشيع الحرارة وتنشر الضياء ، وتبعث الحياة فى جوف ذلك المهمه القفر ، وبين جوانب الطبيعة الصامتة ، فيستيقظ الطير من سباته الطويل ويصدح بأغاريد الصباح بنغمة سحرية أخاذة وصوت عذب حنون . وهنالك حول الينبوع النمير وبين مدارج السبل ترى فتيات البدو السمج فى ثياب فضفاضة وقد بدون سافرات الوجه فى صورة مليحة تسحر اللب وتستهوى القلب ، لم تعبث بها يد الحضارة الفاسدة ، ولما تنل منها مظاهر التجمل الخادع والتكلف المزرى الشائن ، خرجن يردن الماء وبأيديهن الجرار وهن ينشدن نشيداً بدوياً ساذجاً فى لفظه حلواً فى معناه ، فتمتزج تلك الأغاريد العذبة بهاته الأناشيد السحرية فتتولد منها نغمة قوية مشجية هى كل مافى تلك الطبيعة الجافة الغليظة من موسيقى رائعة ، وصوت رخيم . فى المساء ، وما أسعد سويعات المساء فى ليالى القمر البيضاء ، إنها والله داعية أنس ومسرح لبانة ، ومذاد همّ ، ومعهد سرور . وما أجل تلك السويعات التى تنفقها فى السمر مع بدوى ساذج وديع ، يجلس معك ويسمع منك ، ويتحدث اليك بأحاديث ممتعة خالية من الحقد والحسد والنميمة . أو تلك التى ترتاد فيها مواطن الرقص فى سبيل لذة بريئة ، ووراء متعة طاهرة ، حيث ترى الفتيان يصفقون والفتيات يغردن ، والكل يقف فى حركة مستديرة ومن بينهم الراقصة النحريرة ، ترقص على توقيع الدف ونغمات المزف ، وتتمايل فى حركات ريفية واهتزازات بدوية تستلهمها من فن الطبيعة ، وتستوحيها من جمال الطبيعة ، ولكنها مع سذاجتها

وبساطتها بديعة ، لأنها صدرت عنها عفو الخاطر ، وبدرت منها دون تكلف فى الظاهر ، وقد دستمر هذا الأنس حتى مغيب القمر ومطلع السحر ، وفى النهار تشغل الوقت فى عملية الدفن ، وماذا عسى أن تكون عملية الدفن هذه ؟. وهل هى نوع من أنواع التسلية أو وسيلة من وسائل المعالجة ، أو ضرب من ضروب الرياضة ؟. وهل اتخذت المعالجة بالقبر طريقة للحياة ؟ وليس بعجيب أن تنشأ من القبر الحياة كما قد يطغى على الحياة القبر .

إن عملية الدفن هذه ضرورية للقعب ضرورة « الحمام » للمصيف و« الدفء » للمشتى . ولا أعدو الحقيقة إن قلت إن أثرها فى جلب المنفعة ودفع الداء أبعد من ذلك وأسمى : فهى بمثابة الملاج الناجع والدواء الوحيد لشتى الأمراض التى استعصى علاجها بالعقاقير والأدوية المختلفة . وكم من مريض لصب جلده من الهزال ، وارتهكت مفاصله من الأعياء ، وطحطته العلل والسقام ، وكان إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، جاء إلى القعب ومكث به قليلاً فاستحال هزاله سمناً وضعفه قوة ، وتجددت فيه قوى الحياة المضمحلة ، وانتعش فيه روح الأمل البائد . وأنواع الأدواء التى يمكن علاجها فى القعب عديدة ، منها ماهو عضال يصعب علاجه ، وما هو وسط يخشى استفحاله ، وما هو يسير يسهل استئصاله . وهى فى الغالب كل أنواع الأمراض العصبية والروماتزم « داء المفاصل » وبعض العلل الباطنية المزمنة ، والشلل بنوعيه الجزئى والعام . . . ألخ . ومهما يكن من شىء ، فعلاجها أمر موكول إلى التجربة والاستقصاء أكثر منه إلى شىء آخر . على أنه قد يشفى منها الكثيرون بعد ما يقطع الأمل فى شفائهم . ولا يزال الأطباء فى حيرة من أمر القعب لم يهتدوا حتى الآن إلى معرفة حقيقته معرفة تامة تستند إلى البحث العلمى الصحيح ، وقد اكتفوا من ذلك بالاشارة إلى جودة هوائه وصحو سمائه ، وأثرها الحسن فى نفوس المرضى ، وإسداء النصح لمن يستشيرهم فى الذهاب إليه من ذوى العاهات والأمراض . وللناس أقوال متضاربة وإشاعات عديدة يتناقلونها ويروونها عن القعب . فمنهم من يذهب فى القول إلى أن مصدر قوته السحرية هذه إنما هى عذوبة الماء ، ويزعم أناس أنها جودة الهواء ، ويجزم فريق آخر أنها أكل الأزاذ والشواء . وعلى كل حال فحقيقة القعب لاتزال غامضة حتى يستجليها البحث والاستقصاء ، ويتولى ذلك نخبة من شبيبتنا المثقفة تحت إشراف الحكومة وبتعضيد الشعب .

وبالمناسبة ألفت نظر الجميع إلى وجوب العناية والاهتمام بشأن القعب ، وذلك طبعاً بتوفير كل معدات الراحة والرفاهية ، وتشييد المساكن الفخمة ، وتنظيم طرق المواصلات حتى يسهل السفر إليه والأقامة فيه ، فيكثر بذلك عدد المصطافين والمرضى ، وحينئذ نحصل على مورد لابأس به من موارد الرزق نصلح به أحوال البلاد خصوصاً هذه الديرية البائسة فى مثل هذه الأزمة الطاحنة

ولعلك تشتاق إلى معرفة طريقة الدفن ، ولشرحها نقول فى إيجاز : تشق الأرض على شكل أخدود أوحفرة أو قبر أو كما شئت فسمّه ، ثم ينصب حول هذا القبر المزعوم سياج من أعواد النخيل يسقف ويغطى من الجوانب بأغطية كثيفة تحجب أشعة الشمس عنه ، ويكون فى شكله أشبه شىء بالتابوت ، ويترك حتى يبرد أديمه ، ثم يؤتى بالشخص المراد دفنه ، وبعد أن يجرد من جميع ثيابه يضطجع ويهال عليه التراب ويدفن كل جسده ما عدا رأسه ووجهه ، ويستمر على هذه الحال بضع دقائق يضيق خلالها نفسه ، وتسرى فى جسمه حرارة خفيفة فى بدء الأمر تأخذ فى الاشتداد كلما طال مكثه ، ويشرع فى إخراجه متى بدت عليه مظاهر التعب والضيق . والمدة المحددة لدفنه تستغرق مابين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة . وبعد خروجه من ذلك القبر يكون متغير الصورة مصفر الوجه والبدن ملبداً بالتراب المزوج بالعرق فى شكل يثير منك الضحك والعجب وبعد الانتهاء من الحمام يشعر بخفة فى بدنه وسرور ينشى نفسه ، ويلتهم بعد ذلك طعامه بشهية ونهم عجيبين ، وتكرر هذه العملية مرة أو مرتين فى اليوم على حسب استطاعة المرء ورغبته ، وهى تفيد — على الوجه الأصح — جميع الأمراض العصبية والروماتزم والفالج ، ولعل مفعول هذه الحرارة المكتسبة من الدفن يقرب فى الغالب — على ما أظن — من مفعول الحمام الشمسى فى معالجة هذه الأمراض . ويبتدىء زمنه المناسب من الساعة الثامنة صباحاً والساعة الخامسة فى المساء فى الزمن الذى تلائم فيه الحرارة الجسم . والدفن كما ذكرنا ضرورى للمرضى . أما ماعداهم فعلى سبيل التسلية والرياضة ، ومع ذلك فمنفعته لايستهان بها فى الفتك بالأمراض عند بدئها وإزالة الضعف والنحافة وتقوية العضلات والبدن .

كلية غردون (سودان)

أبو القاسم محمد بدرى